الهوية في قصص محمد علي طه

محمد أبرار عالم

باحث الدكتوراه في مركز الدراسات العربية والأفريقية،

بجامعة جواهر لعل نهرو، نيو دلهي

Summary of the research: The weapon of Palestinian identity is found in the stories of Muhammad Ali Taha through monitoring place, time, and the human being, and the heritage and history related to them, and it gives itself the right to take precedence in the narrative vision as the most complete being of its author.This study aims to identify the forms and ways that represent the Palestinian identity in the mind of the writer, and how the written and stylistic elements are added to depict the components of this identity. It also seeks to reveal the features of writing in some of his short-story works.

Keywords: Palestine, identity story, longing for a land

ملخص البحث: توجد سلاح الهوية الفلسطينية في قصص محمد على طه من خلال رصد المكان والزمان، والإنسان، وما يتعلق بهما من تراث وتاريخ ويجعل لنفسها حق الصدارة في الرؤية القصصية كأكمل ما يكون عليه صاحبه.

هذه الدراسة تهدف إلى التعرف على أشكال وطرق تمثل الهوية الفلسطينية في ذهن الكاتب، وكيفية تضاف العناصر الكتابية والأسلوبية في تصوير مكونات هذه الهوية، كما يسعى إلى الكشف عن ملامح الكتابة في بعض أعماله القصصية.

كلمات مفتاحية: فلسطين، قصة هوية، حنين أرض

محمدعلى طه[1]:

ولدفي قرية ميعارعام1941م، هاجرمن بلدته مع أهله سنة 1948 م إلى لبنان، ثم رجع ليسكن في بلدة كابول القريبة من معيار. أنهى دراسته الابتدائية في المدرسة الثانوية في بلدة كفرياسيف سنة 1960م، حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية والتاريخمن جامعة حيفا سنة 1974م، علم اللغة العربية وعلومها في الكلية الأرثوذكسية لمدةخمس وعشرين سنة.

ساهم مع الكتاب في تأسيس "اتحاد الكتاب العرب" بين السنوات (1982 - 1990) نال الدكتوراة الفخرية من جامعة أوريل فلايكو في رومانيا عام 2004، جمع الدكتورإبراهيم طه الدراسات النقدية حول قصصه وأصدرها في كتاب ضخم باسم " قص الأثر" عام 2001 م.

الهوية:-

يغلب الطابع الحبى على قصص محمد على طه لأرضه،وما يتولد من عوامل ومقومات لهوية الإنسانالفلسطيني، وهو يواجه أزمة وجوده وبقائه، طه الكاتب المنكوب في قريته سنة 1948 والمظلوم الغريب في وطنه شابعا بالحس والحب الوطني ويرى من نفسه قدوة لفلسطين ومأساتها، ولهذا شغل هذا الموضوع شاغلة، وكتب عنه في المحاورات العديدة.

من أهمها،الإنسان، المكان، التراث، تجري هذه المحاورمع " البعض وفي بعض الأحيان تختلفها في القصة الواحدة. مثلا في قصة النخلة المائلة، ثلاث حركات هي تعبيرعن ارتباط وثيق بين الأرض والإنسان الفلسطيني، النخلة تراثياً[2]. خلفت من بقايا تراب آدم ، فهي "عمتنا" كما يقول الشاعر، فيما يقتبسه الكاتب عن ابن عربي، في تقديم للقصة، بطل القصة يوسف العلي يمثل المحارب الفلسطيني المشرد المعذب، يتماهى مع النخلة "مبروكة، ويجعل منهامكانا تتكئ عليه الذكريات والحنين

[1]- نبيه القاسم محمد على طه، مبدع راودته الكلمات وروادها - دراسات في أدبه كفر قرع ، دار الهدى، 2007

[2]-محمد على طه، النخلة المائلة كفر قرعدار الهدى 1995

وعشق الأرض تسميتها "مبروكة " تحمل دلالة القداسة، ولقد سمع في المنام حينما أسند ظهره إليها وحيا يقول " وهزيإليك بجزع النخلةتساقط عليك رطبا جنيا"[1]. ودلالة الحلم ما تشير إلى قداسة الشجرة بكونها ذكرت في القرآن الكريم، و إنما تشير إلى دلالتها الرمزية في استحضار التناص الديني عن ولادة السيد المسيح عليه السلام، حيث شهدت النخلة معجزة الولادة وخففت الرطب من معاناتها، فهل هذه هي إشارة إلى ولادة فلسطينية جديدة؟ وهل تسمية يوسف العلى نفسه " يوسف مبروكة تشير إلى هذه العلاقة؟

يمكن اعتبار النخلة الدعامة القوية التي تلقي المراسي التائهة بحبالها إليها، فهي عنوان لفلسطين الضائعة، ولهذا يسمعها يوسف العلي تقول "أسمعها.. أسمعها تناديني، صوتها الرخيم يقول لي : تعال.أنا ما زلت على هذا العهد، الحارة والزقاق، البيت والمدرسة، الحاكورة والبئر، درب الملايات السوروالياسمينة المتعشقة على حجارته العتيقة، البو ابة وحذوة الفرس، والخرزة الزرقاء، والخوخة القنطرة"[2].

فاطمة التي تدفنها الطائرات في مخيم عين الحلوة فاطمة المقدسة التي تحمل اسم بنت النبي ﷺ . كانت محبوبته، وكانت النخلة شاهداً على الحب، فهو يبحث في جذع مبروكة عن فاطمة، عن ورقة، عن رسالة، عن ذكريات .

تمثل هذه القفزة التفاتا إلى البعد الخاص، الذي ربط البطل بمحبوبته الشهيدة ، في حين تمثل الحركة الأولى في القصة البعد العام، ولكننا لا يمكن أن ننكرأن الخاص هو عام أيضا،ففاطمة ليست واحدة ، فهناك آلاف الفاطمات المشردات الشهيدات اللو اتي شكلن قصصا من العشق والحب لآلاف الفلسطينيين، ماتت فاطمة وبقيت النخلة.

الحركة الثالثة في القصة أن البطل ينتبه إلى أن النخلة حانية وهذا الانحناء ليس نمطيا للنخل

3- القرآن، سورة مريم آية 25

[2]-محمد على طه، النخلة المائلة كفر قرعدار الهدى 1995 ص:11

المعروف بعلوه وشموخه. وتبقى النهاية مفتوحة على شكل تساؤل:"ما الذي حناك؟ هل انحنيت لتصمدي أمام الريح؟ أم انحنيت لتشمي رائحة الأهل في الأرض"[1]. وهي نهاية مفتوحة في الشكل فقط، فمن الواضح أن السببين ممكنان لانحناء النخلة، وهذا يعنى تجذب حالة التماهي بين النخلة والأرض. هذه الحالة المؤسسة على صمود أولاً، والتعلق بترابالأرض ثانياً.

وفي قصة " القاعدة والاستثناء" وعي بالأرض، وبممارسات السلطة في مصادرتها فمن خلال حوار باتجاه واحد من الأولى الى الخواجا الذي يزوره، يتجلى صوت الوعى " حتما إنك من دائرة آراضي إسرائيل ....، فماذا تريد؟ هل من شريك جديد في الأرض؟ هل هناك وصية جديدة؟ هل وجدتم وريثا حديثا، لابد أنكم فعلتموها، هل سال لعابكم على مارس السريسة؟[2] والراوي يصرح بشكل واضح أنه لن يفرط بها ، فهي آخرما تبقي من أرض السهل المصادرة، وهو يكشف من خلال خطابه المباشر أقنعة عديدة يختفي تحتها الخواجا. فهل هو شرطي صحافي، من دائرة الأحراش التي حرمت قطعان القرية من المراعى، من ضريبة الدخل، كل هذه الأقنعة تمثل السلطة، وهي جميعا يتم توظيفها في تحقيق هدف واحد لم يسمع إليه المستعمرون السابقون في أتراك و إنكليز، إنه هدف سلخ هذه التلال والربوع من أرض الوطن[3].

ينسجم هذا الهدف مع قصة "عائشة تضع طفلاً حيا يقرألكم. ما تيسر من سورة البقرة فى نفس المجموعة "جسر على نهر الحزين" ، ففي هذه القصة يبدع طه في الهوية والترميز لفلسطين من خلال بقرة مقدسة حلوب ورثها جده عن عمروبن العاص ﷺ، وطمع فيها الإنكليز وادعى رجل غريب لا نعرف أمه أنها ملكة، وأنها كانت في قطيع يعقوب، إشارة إلى الشعب اليهودي وادعائهبملكية الأرض تاريخيا وتأمرعليها المخاتيروفرطو افيها وقبلو ابتقسيمها، إشارة إلى قرار التقسيم عام 1947 وكانت النتيجة

[1]-محمد على طه، النخلة المائلة كفر قرع دار الهدى 1995 ص: 14

[2]- محمد على طه،" القاعدة والاستثناء، جسر على النهر الحزين ، عكا منشورات عربسك 1974 ص: 51

[3]- جسر على النهر الحزين، ص: 60

بعد قسمة القرد للجبن بعد سنوات كنا بدون بقرة، بدون ضرع، بدون ثدي ، بدون بطن"[1]. ويأتي الكاتب متفائلاً في نهاية القصة عند تضع زوجته عائشة مولوداً، على عكس التوقعات بالعقم، فكان أول كلمة نطق بها.. أريد بقرتي؛إن عائشة بدلالتها المعجمية تعبرعن الحياة، والمولود يرمزللجيل القادم الذي سيتشبث بالأرض ويطالب باسترداد البقرة ولهذا فدلالة العنوان موحية بأن البقرة مقدسة،تضارع سورة قرآنية سيكون نصيبها التلاوة والتقديس. من جهة أخرى، وكما كانت سورة البقرة تذكرللقاري ببقرة بني إسرائيل التي تم ذبحها وهي محاولة تلميحية موفقة في الربط بين البقرة وفعل الذبح رغم تباعد الأزمنة، ما دام الواقع يتعامل مع نفس العناصر.

وفي قصة وصاراسمه فارس أبوعرب[2] من مجموعة عائد الميعاري يبيع المناقيش في تل الزعتر يرصد طه حركة النضال الفلسطينية في الدفاع عن أراض وحقوق العمال من خلال الحزب الشيوعي متجسداً في فارس رتيبة ، الذي يقوم بدورالوعي والمقاومة ويستقطب عددا من الشبان.

وينجح في ردع محاولات دائرة أراضي إسرائيل من السيطرة على بعض الأراضي هذا العمل النضالي،يحرره من النسبة إلى أمه، ويصيراسمه منسوبا إلى أبيه سعيد أبوعرب،وهذا يذكرنا بعنتر الذي لم ينل حرية إلا عندما قال لهأبوه شداد؛ فأنتحر. واستطاع فارس أبوعرب مثل عنترالعبسي أن يحقق الرجولة والوعي الوطني وينتصر.

تتجلي علاقة الانتماء بالأرض بشكل كبيرفي قصة " فارس هذا العصر" من مجموعة وردة لعيني حفيظة، حيث يرسم طه ملامح ثلاثة طرق تقف في سبيل الفلسطينيين لنيل حريته، الأول الطريق السهل، ترابه ناعم ويخلو من الحصوملئ بآبارالماء، وعند كل شجرة غناء تحتها مضافة فيها خبز ساخن وطبخ دافئ وقطين وزبيب وتمر[3]. والثمن في هذا الطريق أن يدفع أخته ثمناً لحارسه وترقص في

[1]- جسر على النهر الحزين، ص:114

[2]-محمد على طه، عائد المعياري يبيع المناقيش في تل الزعتر كفر قرع، دار الهدى،2006 ص: 7-21

[3]محمد على طه، "فارس هذا العصر" وردة لعيني حفيظة حيفا، دارالاتحاد 1985 ص:10

ليلة فض بكارتها، هذا طريق فيه التنازل عن الأرض والعرض، ولن يدخله الفلسطيني الصادق.

الطريق الثاني: "نقطة ثلاثة أنهار عريضة عميقة، عليها ثلاثة جسور ويجلس على كل جسر عملاق يحمل خنجرا وسيفا وسنانا ولا يدعك تعبر الجسر- ولو تزودت بجواز سفر- إلا إذا صليت له وحمدته وشكرته وقبلت قدميه وأعطيته شعرة من شاربك[1].

وهو طريق فيه التنازل عن الكرامة وظلم الأشقاء العرب وتخاذلهم وغدرهم، ولن يختار الفلسطيني هذا الطريق.

والثالث: تحرسه غولية تدلى ثدياها واحمرت عيناها وشمط شعرها. تطحن الملحبرحى غريب فاذا شاهد تك فلا سلام ولا كلام بل طحن عظام[2] ويختار الفلسطيني هذا الطريق لأن فيها المواجهة مع عدوه، وهناك تغريه الغولة بالمال والنساء والثروة والخمر فيرفض ويعلن مطلبه الأساسي، قطعة قماش طولها باع، وعرضها ذراع بها بياض الثلج وسواد الليل وخضرة العشب وحمرة الورد الجوري، وقرطاسا مكتوبا عليه بضعة أسطر منظومة فإذا خفقت قطعة القماش رقص وغني القرطاس[3].

إن العلم والنشيد الوطني يعبران عن طموحات الفلسطيني المعذب ويتوجان مطلب الهوية، أسوة بكل الشعوب التي نالت استقلالها، كما يذكر محمد على طه في هذه القصص، وهو يرفض تربية الأسرة في طفولته، حينما كان الطفل يرغم على إنشاد "هتكفاه" النشيد الوطني الإسرائيلي بحضور الحاكم العسكري في المدرسة وينتقد محمد على طه غياب الوعي، وهذا هو الدور الذي لعبته المدارس في طموس معالم الهوية الفلسطيني.

---

[1] نفس المصدر

[2] نفس المصدر

[3] نفس المصد

المصادر والمراجع:

1- نبيه القاسم محمد على طه، مبدع راودته الكلمات وروادها - دراسات في أدبه كفرقرع ، دار الهدى، 2007

2 - محمد على طه،النخلة المائلة كفرقرعدار الهدى 1995

3 -سورة مريم آية 25

4-محمد على طه، النخلة المائلة كفرقرعدار الهدى 1995 ص:11

5- في قصة "الشجرة المفقودة" من مجموعة لكى تشرق الشمس، لمحمد على طه.

6- نفس المصدر

7- محمد على طه، النخلة المائلة كفرقرع دار الهدى 1995 ص: 14

8- محمد على طه،" القاعدة والاستثناء، جسر على النهر الحزين ، عكامنشورات آلابسك 1974 ص: 51

9- جسر على النهر الحزين، ص: 60

10- جسر على النهر الحزين، ص:114

11- محمد على طه، عائد المعياري يبيع المناقيش في تل الزعتركفرقرع، دار الهدى،2006 ص:7-21

12- محمد على طه، "فارس هذا العصر" وردة لعيني حفيظة حيفا، دار الاتحاد 1985 ص:10

13- نفس المصدر

14- نفس المصدر

15- نفس المصدر